قصّة يحيى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ

نبيُّ الله يحيى هو ابن زكريا. وهو الذي كان نتيجة دعاء زكريا لله عندما كان في المحراب بأن يهبه ولداً صالحاً. وهو الذي سمَّاه الله يحيى قبل أن يولد، بخلاف بقية الأولاد الذين يسمّيهم آباؤهم. وهو أوَّل واحد في الأرض سُمِّي بهذا الاسم. ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

وقيل: إنَّ الله سماه يحيى؛ لأنَّه أحيا به عقم أمِّه المسنَّة. وقيل: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والنبوة، ودليله قول الرسول ﷺ: **«ما من أحد إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا»**[1].

ويحيى يدعى عند النصارى بـ«يوحنا المعمدان» وهو الذي عمّد[2] المسيح في نهر الأردنّ.

ولد يحيى من أبوين شيخين صالحين صابرين، ونشأ على الطاعة والعفة والزهد والاستقامة، وكان بارًّا بوالديه، وكثير العبادة لله منذ نعومة أظفاره. وكان إذا ما دعاه الأطفال للعب يقول لهم: ما لهذا خلقت. مما يعني إنَّ الإنسان خلق لإعمار الأرض وعبادة الرحمٰن.

---

(1) ذكره أبو شيبة في مصنَّفه.

(2) عمّد: غطّس.

ومنذ صغره آتاه الله العلم والحكمة ومَنَّ عليه بالرسالة. ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 12].

ومنذ صغره كان يخطب في الناس ويعظهم في مناسباتهم الأسبوعيَّة وفي أعيادهم.

ثم ساح في الأرض ودخل الشام يدعو الناس إلى عبادة الله، ولمَّا بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل، أمرهم أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً، وبالصلاة، وبالزكاة والصيام.

كما بشَّر بالمسيح ابن مريم، وحينما بُعث كان المُصدّق لما يقول يؤازره ويسانده في دعوته إلى الله ، كيف لا وهو السيِّد والفقيه والعالم، وهو النبيُّ ابن النبيِّ زكريا سيِّد بني إسرائيل، وهو الحصور الذي لم يأت ولم يهمّ بمعصية قطُّ بعد أن حصر نفسه عن الشهوات وملذَّات الدنيا. ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 39].

ثناء الله على يحيى:

أثنى الله على يحيى في كتابه الكريم ثناءً جميلاً، ووصفه بصفات قلَّ نظيرها بالبرِّ والتقوى. ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: 12-15].

وهذه الآيات الكريمة تصف يحيى بصفات جميلة. منها:

1 - أنَّ الله أعطاه الكتاب ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾. أي: يا يحيى، خذ التوراة بجدٍّ واجتهاد، واحكم بما فيه.

2 - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: في سنٍّ مبكرة، أعطاه القدرة على فهم أسرار التوراة قبل بلوغه مبلغ الرجال، وحباه رجاحة العقل ونعمة الفراسة، وأعطاه النبُوة في سنٍّ مبكرة.

3 - ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أي: آتاه الله الحنان هبة من عنده تعالى، وهي صفة ضرورية للنبيِّ عموماً رعاية للقلوب والنفوس، لاجتذابها إلى الخير في رفق ولين.

4 - ﴿وَزَكَوٰةً﴾: والزكاة هي الطهارة من الذنوب والآثام، والعفة ونظافة القلب.

5 - ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: حريصاً على أداء ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

6 - ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾: كان يحيى بارًّا بوالديه مسارعاً في طاعتهما، ساهراً على راحتهما ورعايتهما، وكان أحرص ما يكون عليهما في سنِّ الشيخوخة، كيف لا وقد ولد من أبوين شيخين كبيرين. وكثيراً ما دعا الرحمٰن العباد، للإحسان لآبائهم خاصَّة في سنِّ الشيخوخة أو في المرض؛ لأنَّ الآباء في مثل هذه المواقف كثيراً ما يكونون بحاجة لرعاية أبنائهم. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]. وحينما قال الله: عندَكَ بصفة المذكَّر، أشارت الآية الكريمة إلى مسؤولية الولد الذكر ولم تشر إلى الأنثى. وفي هذا لطف من الله مما يدل على أنَّ الرعاية وإن كانت من الجنسين، إلا أنَّ مسؤولية الذكر أكبر في هذا. والله أعلم.

7 - ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾: لم يكن متكبراً وإنَّما كان متواضعاً، ليِّن

الجانب، رؤوفاً بالناس بما يرضي الله ، وفي الوقت نفسه كان لا يسكت عن منكر نهى الله عنه.

8 - لم يكن ﴿عَصِيًّا﴾ : والعصيّ صيغة مبالغة، فنفى عنه أن يكون كثير العصيان، ونفيه عنه قلّة العصيان أولى، فكان شديد التقى والنقى والطهر.

9 - دعاءٌ من الله له بالسلامة ممَّا يزعجه أو يسيء إليه في مواقف ثلاثة، أشدَّ ما يكون الإنسان فيها بحاجة إلى العون: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ : أي: سلم الله عليه في أصعب ثلاثة مواضع في حياة الإنسان: حين الولادة، وحين الموت، وحين يبعث حياً يوم القيامة. كما وعده تعالى بالأمان من أن يناله الشيطان من السوء بما ينال به بني آدم في يوم ولادته، وبالأمان من فتنة القبر يوم يموت، وبالأمان من عذاب يوم القيامة مما يعترض الخلق من الفزع يوم الفزع الأكبر.

وهناك لفتة جميلة جرت بين عيسى ابن مريم المعاصر ليحيى. عندما التقيا يوماً، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني.

فقال يحيى: استغفر لي، أنت خير مني.

فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمتُ على نفسي، وسلم الله عليك.

انظر إلى قوله تعالى عندما سلم عيسى على نفسه فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33].

بينما جاء في سلام الله على يحيى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

نهاية يحيى:

كان يحيى شديد التقوى والورع ، قويًّا مدافعاً عن الحق، منفِّذاً لأوامر الله، ناهياً عن معاصيه.

وممَّا أمره الله به تبليغه لبني إسرائيل أن ينهى عن الزواج ببعض المحارم التي كانت من قبلُ حلالاً في شريعتهم .

وأصبح هذا الأمر معروفاً عند الأتقياء من بني إسرائيل. وكان في تلك الفترة التي وجد فيها يحيى، ملكاً في فلسطين مُعيّناً من قِبل الرومان الحاكمين تلك البلاد في تلك الآونة من الزمن.

وافتتن ذلك الملك في امرأة محرَّمة عليه بما شرّع الله، وبما نهى عنه يحيى. ولما كانت تلك المرأة تريد الزواج من الملك، أرادت التخلُّص من يحيى الذي مانع بشدَّة هذا الزواج .

وذات يوم، جاءت إلى الملك وتدلَّلت عليه حتى أقنعته بذلك. وقالت: إنَّها لن تمكّنه منها حتى يأتيها برأس يحيى على طبق من فضة.

وقام الملك الولهان بتنفيذ الأمر، وأرسل إلى يحيى أحد الجنود وقَتَله، وجاء برأسه على طبق من فضة. وكثيراً ما نسمع في المثل عبارة «على طبق من فضة» . وأصلها أنَّ رأس يحيى وضع على طبق من فضة وجيء به إلى الملك. وبذلك قضى يحيى شهيداً. ويوم القيامة يكون سيِّد الشهداء وقائدهم إلى الجنة، وقيل: إنَّه مدفون في بيت المقدس، وقيل: بمدينة دمشق. والله أعلم.

بعد ذلك انتقم الله من بني إسرائيل قتلة الأنبياء الذين من بينهم يحيى وزكريا: بأن سلَّط عليهم شرارَ أهلِ الأرض، فقتل عظماء بني إسرائيل ، وسبى منهم الكثير الكثير.

العبر من قصَّة يحيى:

يؤخذ من قصَّة يحيى عدَّة عبر، منها:

1 - إنَّ الإنسان خلق لإعمار الأرض وعبادة الله.

2 - البرُّ بالوالدين واجب على الأبناء ذكوراً وإناثاً، معنويًا وماديًا على الذكور خاصَّةً؛ لأنهم رأس الأسرة وأساسها، والمرأة تابعةٌ لزوجها.

3 - المؤمن ليّنٌ سهلٌ حسن الأخلاق.

4 - أقصى ما يتمنّاه الإنسان في هذه الحياة أن يموت شهيداً في سبيل الله ونصرة دينه، وقد بلغه يحيى.

5 - الظلم عاقبته وخيمةٌ على الظالم، والمظلوم منصور ولو بعد حين، مهما اشتدَّ الظلم فإنَّ زواله قريب بإذن الله.